Journal of Translation and Languages مجلة الترجمة واللغات
ISSN : 1112-3974

مقاربة تداولية للفعل الكلامي في رحاب السياقات القرآنية سورة الكهف أنموذجا

خلوفي قدور
جامعة الجزائر2 –الجزائر
K_Kaddour@hotmail.fr

Abstract : *Determining the structural pragmatic level resulting from the extraction of the verbal verb when it is linked to a general rhetorical semantic unit is an attempt to show the dynamic energy in the language of the Qur'an that sheds light on an expressive ability in its well-known idiomatic system, or in its implicit linguistic systems capable of devising new conventions that suffice To give preference to the desired significance that responds to the directive of the Qur'anic research and a holistic direction that makes the Qur'anic discourse a single verse. Therefore, language in the fundamentalist system actually became not a purely structural system, and that its study is based on the philosophy of the holistic cognition of the discourse, which led to the deduction of patterns of new verbal acts that emphasized semantic capabilities that make the discourse achieve its objective dialectic with reality. The researcher concludes that the nature of the Qur'anic text is based on its linguistic choices and the way they are distributed to dispense meanings and connotations.*
Keywords: *Syntactic level, verbal verb, linguistic patterns, indicative verbs, inductive character.*

الملخص: إن تحديد المستوى التركيبي التداولي المتمخض عن استخراج الفعل الكلامي حال ارتباطه بوحدة دلالية خطابية عامة إنما هي محاولة لتبيان ما في لغة القرآن من طاقة دينامية تسلط الضوء على قدرة تعبيرية في نسقها الاصطلاحي المعروف، أو في أنساقها اللغوية المضمرة القادرة على استنباط اصطلاحات جديدة تكفي لترجيح الدلالة المنشودة التي تستجيب لتوجيه البحث القرآني وجهة كلية تجعل من الخطاب القرآني آية واحدة. ولذلك آلت اللغة في المنظومة الأصولية فعلا لا نسقا بنيويا صرفا، وإنّ دراستها تكون انطلاقا من فلسفة الإدراك الكلي الشمولي للخطاب، الأمر الذي أدّى إلى استنباط أنماط من الأفعال الكلامية الجديدة التي أكّدت على إمكانات دلالية تجعل من الخطاب يحقّق جدليته الموضوعية مع الواقع. ليخلص الباحث إلى أن طبيعة النص القرآني يرتكز على اختياراته اللغوية وطريقة توزيعها لتصريف المعاني والدلالات.
الكلمات المفتاحية: المستوى التركيبي، الفعل الكلامي، أنساق لغوية، الأفعال التلميحية، الطابع الاستدلالي.

مقدمة

إن محاولة استخرج الأفعال الكلامية من سورة الكهف وتحديد مستوياتها التركيبية التداولية و ربطها بوحدتها الدلالية العامة للخطاب إنما هي محاولة لتبيان ما في لغة القرآن من طاقة دينامية تكشف عن قدرة تعبيرية سواء في نسقها الاصطلاحي المعروف، أو في أنساقها

اللغوية المضمرة القادرة على استنباط اصطلاحات جديدة تكفي لترجيح الدلالة المنشودة التي تستجيب لواقع القراءة المزامنة و توجيه البحث القرآني وجهة كلية تجعل من الخطاب القرآني– على حدّ تعبير الزركشي- آية واحدة.[1]

ولذلك أصبحت اللغة في المنظومة الأصولية فعلا وليس نسقا بنيويا صرفا متحكّما في تصريف المعنى وتحديد الدلالة، وإنّ دراستها تكون انطلاقا من فلسفة الإدراك الكلي الشمولي للخطاب، إنْ على المستوى المعجمي الإفرادي أو على المستوى التركيبي التداولي الأمر الذي أدّى إلى استنباط أنماط من الأفعال الكلامية الجديدة التي أكّدت على إمكانات دلالية تجعل من الخطاب يحقّق جدليته الموضوعية مع الواقع المعاش.

أولا: الأفعال الكلامية التوجيهية في سورة الكهف

من أهم القضايا التي استرعت انتباهنا ونحن نبحث في مصنفات المفسّرين عن طبيعة الأفعال الكلامية ومختلف قراءاتها الدلالية التأويلية هي رجحان معنى الخطاب بين الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية، ولا تنتفي الحقيقة الشرعية إلا بتوفير قرينة ثانية واضحة تدل على إرادة الحقيقة اللغوية؛ وسنحاول أن نتوقف عند بعض الأفعال الكلامية التي ترمي إلى التأثير في المتلقي.

- **الأمر**: يعرّفه الشيرازي بأنه:" استدعاء الفعل بالقول ممّن هو دونه"[2]، يقول المولى عز وجل:" إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا "[3]

فالفعل الكلامي "آتنا" يتمثل في جملة الأمر التي تتكون حمولتها الدلالية من قوة إنجازية حرفية هي فعل الأمر وقوة إنجازية مستلزمة هي الدعاء والتضرع إلى الله تعالى وذلك لاقتضاء السياق اللغوي هذه الدلالة اللغوية. و يذهب الطاهر بن عاشور في موقفه التأصيلي لكي يقدّم فوائدا في التأويل حين يتحدث عن خصوصية اللغة القرآنية في تعاملها مع السياقات اللغوية المختلفة؛ إذ يقول مفسّرا قوله تعالى: "من لدنك" "فزيادة (من لدنك) للتعلق بفعل

[1] الزركشي: البرهان في علوم القرآن، خرج حديثه وقدم له وعلق عليه مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت،2005 ج2 ص 87.

[2] الشيرازي: التبصرة في أصول الفقه، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ص 9.

[3] سورة الكهف، الآية رقم 10.

الإيتاء يشير إلى ذلك (رحمة الله العظيمة) لأن في (من) معنى الابتداء و في (لدن) معنى العندية و الانتساب إليه، فذلك أبلغ مما لو قالوا: آتنا رحمة، لأن الخلق كلّهم بمحل الرحمة من الله و لكنّهم سألوا رحمة خاصة في حين توقعوا ضدّها و قصدوا الأمن على إيمانهم من الفتنة"[4].

لعل هذا الاستعراض الأمين لطاهر بن عاشور يفضي بنا إلى استخلاص أمر في غاية الأهمية ألا وهو أن الخطاب القرآني يقدّم آليات التعامل لمن يحسن التدبّر والمساءلة ويستعمل أدوات المقارنة والتعليل على الوجه الصحيح؛ ولذلك تجاوز السياق اللغوي– في المنظور الأصولي- هو مجرد حصر التأويلات الممكنة على إيقاع النص، بل قد يمتد إلى التدخّل في تشكيل البنية اللغوية **(structure linguistique)**.

و ثمة نمطا آخرا من الأفعال الكلامية التي تتسم بدرجة قصوى من الانسجام و الاتساق بحيث لا يمكن التقديم و التأخير أو الفصل بينهما ، فإن كانت تنهض على بُعد لغويَ ظاهر تنهض- أيضا- على بُعد معنوي مضمر، والمستويان يحققان للنص بُعده الدلالي و المعنوي، يقول الله تعالى :" وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بئس الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا[5].

نلاحظ أن الأفعال الكلامية في هذه الآية الكريمة مثل فليؤمن ، فليكفر، يحتويان على قوتين إنجازيتين لهما نفس المحتوى القضوي حيث أنجزا فعل الأمر الذي نستدل عليه من خلال القرائن البنيوية التي تتمثل في المضارع المقرون بلام الأمر، و لكن السياق العام للآية لا يوحي بإنجاز فعل أمر صريح، و إنما يبتغي تحقيق و تسوية المكنيّ عن الوعد و الوعيد[6]، و ما يؤكد على انسجام النص مفهوما و إجراء هو ابتعاده عن العفوية إلى القصدية التي يغدو فيها كل شيء مبررا مقصودا و هو تقديمه للفعل " فليؤمن" على الفعل "فليكفر"؛ إن الله سبحانه و تعالى قدّم الإيمان عن الكفر، لأن إيمان المؤمنين مرغوب فيه ؛ و فعل "يؤمن" و "يكفر" مستعملان للمستقبل أي ما شاء أن يوقع أحد الأمرين و لو بوجه الاستمرار على أحدهما

[4] الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار التونسية للطباعة، تونس، 1984، ج15، ص 226.

[5] سورة الكهف، الآية رقم 29.

[6] ينظر تفسير التحرير والتنوير، ج15، ص 307.

الملتبس به الآن، فإن العزم على الاستمرار عليه تجديد لإيقاعه[7]، و هذا ما جعل الخطاب القرآني معجزا لأن مردّ ذلك إلى اختياراته لوحداته اللغوية و الدلالية و إلى الترتيب المنظم لجمل آياته التي تكشف عن قيمتها الأسلوبية و التي تزول عند أيّ محاولة لتغيير هذا الترتيب.

○ **النفي**: عرّفه الرازي: بقوله:" القول المقتضى بصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي أو بالإثبات[8]و " النفي هو إنكار للإثبات[9]؛ و للنفي أدوات منها: ما، لما، ليس. و النفي من بين الآليات اللغوية ذات الأهداف الدلالية التي ترتبط بتماسك وحدات النص، أو التنبيه على دلالة معينة ، ولذلك يعدّ الجانب التداولي الإنجازي الأبرز فيه هو نفي فعل ما أو خبرا ما، و من أمثلة ذلك ما ورد في قوله تعالى: " ودَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا[10]

لاشك أن التركيب اللغوي في هذا النص القرآني يقوم على ملاحقة المعنى لتحقيق الدلالة؛ فالآية الكريمة تضع القرائن اللفظية و العقلية ليتّسع معناها إلى أنواع أخرى من المعاني المستنبطة وفق حاجيات السياق اللغوي العام الذي وردت فيه؛ فنجد مثلا أن الفعل الكلامي: ما أظن، يتكون من فعل إسنادي يتمثل في الجملة الفعلية التي تشتمل على محمول فعل (أظن) و موضوعه الفاعل(الكافر) ومن اللواحق الجار و المجرور في (إلى ربي)؛ و الفعل الكلامي" ما أظن "تتشكل حمولته من قوة إنجازية حرفية هي النفي و قوة إنجازية مستلزمة هي إنجاز فعل التهكم و السخرية، و يشير الطاهر بن عاشور إلى هذه الفكرة قائلا:" و انتقل (أي الكافر) من الإخبار عن اعتقاده دوام تلك الجنة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة و لا تلازم بين المعتقدين، و لكنه أراد التورك على صاحبه المؤمن تخطئة إياه و لذلك عقّب بقوله: و لئن ردّدت إلى ربي لأجدنّ خيرا منها منقلبا" تهكما بصاحبه و قرينة التهكم قوله: " وما أظن الساعة قائمة"[11].

فالمعنى المحمول في هذه الآية يوحي بالنفي، نفي زوال الجنان المثمرة ونكران قيام الساعة أصلا وهو فعل كلامي مباشر إلاّ أن الآية تحدّد دلالات أخرى غير مصرّح بها اقتضاها سياق

---

[7] نفس المصدر، ج15، ص 308.

[8] الفخر الرازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري أمين، دار العلم للمعلمين، بيروت، ط1، 1985، ص 149.

[9] شاهين الحسن: علم الدلالة السيمانتيكية، دار الفكر للطباعة، ط1، 2001، ص 185.

[10] سورة الكهف، الآية رقم 36/35.

[11] تفسير التحرير والتنوير، ج15، ص 321.

التركيب العام وهي امتداد للدلالات المحمولة ضمن النص ومنها إنجاز فعل التهكم والسخرية بالمؤمن الفقير الذي لا مال ولا نفر، ولا جنة عنده ولا ثمر وهي أفعال كلامية غير مباشرة.

ثانيا: الأفعال الكلامية التلميحية في سورة الكهف

لاشك أن المتكلم بقدر ما يفصح بطريقة مباشرة عن مضمون كلامه عبر أنساقه التعبيرية يعتمد- أيضا- على أشكال لغوية مجازية تجعل القارئ يتفاعل معها بشكل تذوقي ليتسابق مع حيثيات الخطاب إن على مستواه الشكلي التركيبي أو مع موضوعه المفهومي التأويلي؛ و لذلك يقول الفخر الرازي في معرض حديثه عن دواعي استعمال المتكلم للمجاز:" إن العدول عن الحقيقة إلى المجاز: إما لأجل اللفظ أو المعنى..."[12].

وعليه سنقف عند بعض الآليات والاستراتيجيات التلميحية التي يعتمدها المتكلم في إنتاج خطابه أي عند بعض أصناف الأفعال الكلامية الإنجازية غير المباشرة.

- **تداولية الحذف**

يرى البحث الأصولي أن الحذف فرع والذكر أصل، ولا يعدل عن الأصل إلا لضرورة؛ وهذه الخاصية التي ينماز بها القرآن الكريم إنما مرجعها إلى انفتاح لغته في حدّ ذاتها، والتي تستجيب لآليات تتحكم في تحديد مواقع الحذف المعنية بالدلالة والقول. وانطلاقا من هذا التصور نمضي في تحديد بعض المظاهر الأسلوبية ذات الطابع التداولي والتأويلي التي يبدو فيها الحذف هو الخطاب المركز.

- **حذف الفعل**: يقول المولى عز و جل: " وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ"[13]

فإن أحدا لا يشك في امتناع الفعل ههنا، فالفعل الكلامي "يبسط" حذف لأنه مستلزم من السياق التركيبي العام للآية الكريمة، لأن الفعل أساسا يلازم الزمن وتوظيفه في هذه الحالة لا يخدم معنى الآية الذي هو تبيان هيئة الكلب، ويشرح الجرجاني هذه الفكرة قائلا: وأن قولنا: كلبهم يبسط ذراعيه، لا يؤدي الغرض وليس ذلك إلا أن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجيه

[12] الفخر الرازي: المحصول في علم الأصول، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999،

[13] سورة الكهف، الآية رقم 18.

فعل.... فالغرض هو تأدية هيئة الكلب[14]؛ ولهذا فالأبعاد التداولية غالبا ما ترجع إلى طبيعة النصوص المدروسة التي تلزم متلقيها على تحديد جملة من العلائق التي تربط النسق اللغوي بعالم الدلالة، وهذا ما يعرف في البحث الأصولي بتداولية المظاهر الأسلوبية والذي يعدّ الحذف من أبرز ميادينها

- **حذف المبتدأ**: لقد أشار الزمخشري إلى حذف المبتدأ اعتمادا على المشاهدة في قوله المستهل: الهلال و الله، أو إذا رأيت شخصا فقلت: عبد الله و ربي[15]. فقوله عز وجل: " وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ" [16] فيه حذف للمبتدأ، لأن الخبر من خصائصه وحده، و لأن تقدير الكلام هو أن " هذا الحق من ربكم" و ليس هذا كما يظن بعض الجهّال أي : قل القرآن حقّ، فإنه لو أريد هذا لنصب " الحق"، و المراد إثبات أن القرآن حق، و لهذا قال : "من ربكم" و ليس المراد هنا قول حق مطلق، و الحق خبر لمبتدأ محذوف معلوم من المقام و حذف المبتدأ إشارة إلى أن الخبر من اختصاصه[17]؛ و على هذا الأساس وظف الفعل الكلامي الإنجازي (و قل) ليخدم المحذوف ألا و هو (القرآن)، و الحذف غياب يكمّله المتلقي.
- **التقديم والتأخيرودلالتهما:** يأخذ التقديم و التأخير أبعادا دلالية و تأويلية تعمل على إلصاق النصوص بعضها ببعض، كوجه من وجوه التأويل و هو "يشمل كل مقدّم كان يمكن أن يتأخر سواء أكان ذلك لاعتبارات نحوية أو دلالية أو إيقاعية" [18]. ولذلك أولى علماء القرآن عناية فائقة لأسباب التقديم والتأخير ودلالاتهما التي بدت مركز نواة في تحديد القصد وتصريف دلالة الأحكام المستنبطة من متون النصوص الشرعية، وهذه بعض النماذج من التقديم والتأخير وأثرهما على الخطاب.

---

[14] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، شرحه وعلق عليه ووضع فهارسه محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2005، ص 597.

[15] الزمخشري: المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت، ط2، ص 25.

[16] سورة الكهف، الآية رقم 29.

[17] تفسير التحرير والتنوير، ج15، ص 152.

[18] محمد الطرابلسي: خصائص الأسلوب في الشوقيات، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط1، 1966، ص 284.

- **تقديم الأدنى على الأعلى**: يقول الله تعالى :" مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً"[19] ؛ لعل هذا الانتقال من الأدنى إلى الأعلى من القضايا التي تناولها العلماء لما يحققه من أهداف دلالية، و لذلك نفي الأدنى في الآية الكريمة ليعلم منه نفي الأعلى من الأولويات، ف" تقديم ذكر (الصغيرة) لأنها أهمّ من حيث يتعلق التعجب من إحصائها و عطفت عليها لإرادة التعميم في الإحصاء ، لأن التعميم يثير التعجب"[20]؛ إذن تقديم (الصغيرة) على (الكبيرة) إنجاز لفعل كلامي غير مباشر ألا و هو التعجب من (الكتاب) الذي لا يبقي صغيرة و لا كبيرة في جميع أحوالهما إلا في حالة إحصاء إياهما.
- **تقديم المسبّب على السبب**: في قوله جل ذكره:" فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا"[21]؛ إن جملة " أردت أن أعيبها " متوزّعة على كل من جملتي " فكانت لمساكين" و " كان وراءهم ملك"، فكان من حقها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر، و لكنها قدّمت خلافا لمقتضى الظاهر، و ذلك لإنجاز فعل العناية و الاهتمام بإرادة إعابة السفينة ، حيث كان عملا ظاهره إنجاز فعل كلامي مباشر و هو الإنكار إلا أن المعنى المضمر و الذي يفهم من روح النص و منطقه هو إنجاز فعل كلامي غير مباشر و هو الإصلاح و الصلاح زيادة في تشويق موسى إلى علم تأويله، لأن كون السفينة لمساكين مما يزيد السامع تعجبا في الإقدام على خرقها"[22].

ثالثا: الطابع الاستدلالي لأساليب البيان في سورة الكهف

إذا كان مما رأينا من صنف الأفعال الكلامية غير المباشرة يدخل ضمن إطار الاستراتيجية التلميحية، فإن ثمة آليات لغوية أخرى يتم تسخيرها من قبل المتكلم للتلميح إلى مقاصده مثل الاستعارة و الكناية و التشبيه و هو قسم من المجاز يعتبره ابن قتيبة قاسما مشتركا بين اللغات و ضرورة في التعبير لا مناص منها، فقد " تبين لمن عرف اللغة أن القول يقع فيه المجاز، فيقال : قال الحائط فمال، وقل برأسك إليّ أي أمله، و قالت الناقة ، و قال البعير"[23].

---

[19] سورة الكهف، الآية رقم 49.

[20] تفسير التحرير والتنوير، ج15، ص 33.

[21] سورة الكهف، الآية رقم 79.

[22] تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 12.

[23] ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1981، ص 109.

إذن لا مشاحة من الإقرار بأن ثمة منحى مجازي وتداولي في الخطاب القرآني، وعليه سنحاول تحديد بعض الأفعال الكلامية غير المباشرة التي وردت في السورة الكريمة والتي تحتاج من المتلقي إلى حركة ذهنية استدلالية دقيقة تفضي به إلى استنباط الحكم وترجيح الدلالة، ومنها:

- **الاستعارة**: يعرّفها السكاكي بأنها " ذكر أحد طرفي التشبيه و تريد به الطرف الآخر، مدّعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به"[24]؛ و يذهب سيرل **Searle** في كتابه " المعنى و العبارة **Sens et expression** "، و هو ممن يهتمون بالصورة الفنية في إطار التداوليات، إلى ضرورة التفريق بين المعنى الحرفي **Sens littérale** و معنى المتكلم **sens figuré** ، معرّفا الاستعارة بأنها : " تجسد مثالا جوهريا لاستعمال اللغة، إذ يُدرك منها عادة معنى مقصودا يقع وراء البنية المنجزة للملفوظ أو الجملة ؛ و بهذا فإن الاستعارات تبدو مرشحات قوية للتحليل التداولي"[25]؛ و من بين الاستعارات الواردة في سورة الكهف قوله تعالى : " جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ "[26]؛ يشرح السيوطي هذه الصورة الفنية قائلا:" شبه ميلانه (أي الجدار) للسقوط بانحراف الحي، فأثبت له الإرادة التي هي من خواص العقلاء"[27]، فحذف المشبه به الذي هو المستعار(الإنسان) و رمز إليه بأحد لوازمه ألا و هو الميل و الانقضاض فهي من قبيل الاستعارة المكنية.

فالاستعارة آلية لغوية مهمة تستخدم في انجاز الأفعال الكلامية غير المباشرة، فعندما قال جلّ ذكره: "جدار يريد أن ينقض فأقامه" أراد من خلال هذا المنطوق أن يشير إلى اقتراب سقوط وانقضاض الحائط. ومن الملاحظ أن عملية ذهنية استدلالية قد تفضي بنا إلى عدم التعامل مع المعنى الحرفي للنسق اللغوي للخطاب، بل مع عناصر من السمات الدلالية لكلمة " ينقض" باعتبارها وحدة دلالية. فالسمات الدلالية لكلمة " ينقض" هي الميل والسقوط والانقضاض التي يتوصل إليها المتلقي اعتمادا على قرائن سياقية وكفاءة لغوية التي تؤدي به

[24] السكاكي: المفتاح، ضبطه وكتب هوامشه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987، ص 369.

[25] John Searle : Sens et expression ; études de théorie des actes de langage, traduction et préface par Joëlle Proust, les éditions de minuit, 1982, p 152.

[26] سورة الكهف، الآية رقم 77.

[27] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004، ص 573.

إلى ترجيح قصد الآية الكريمة. و في موطن آخر من السورة يقول الله تعالى: " وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ"[28]؛ يقول القزويني شارحا هذه الصورة البديعة : فإن المستعار منه حركة موج الماء على الوجه المخصوص و المستعار له حركة الإنس و الجن أو يأجوج ومأجوج و هما حسّيان، والجامع لهما ما يشاهد من شدة الحرّ و الاضطراب"[29]؛ و قال محمد الجرجاني في نفس السياق:" استعار موج الماء لحركة الإنس و الجن و يأجوج و مأجوج بجامع الهيئة المخصوصة و الكل محسوس"[30]؛ و قال الطبري عن الآية ذاتها :" و تركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض، الضمير في تركنا لله تعالى ، أي تركنا الجن و الإنس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض... واستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة و تردد بعضهم في بعض كالمولهين من همّ و خوف، فشبههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض"[31]. لعل هذه الاستعارة تجسد لنا مشهدا مهيبا من مشاهد يوم البعث وهو اضطراب واختلاط يأجوج ومأجوج وأتباعه متدافعين كتدافع الموج، فالمستعار له لفظ" الموج" وهي حركة المياه، وظفت في مشهد تدافع الكفار، أمّا المستعار منه فتجسد في يأجوج ومأجوج وما اتصفا به من فساد، ولفظ" يموج" إنجاز لفعل كلامي غير مباشر وهو الهلاك والدمار، والاستعارة تصريحية.

- **الكناية:** يعرّفها السكاكي بأنها :" ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينقل من المذكور إلى المتروك"[32]، يقول الله تعالى في محكم تنزيله : فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا "[33]؛ يشرح ابن عاشور (وضربنا على آذانهم) بأنها "كناية عن الإنامة أي ضربنا على آذانهم غشاوة لأن النوم الثقيل يستلزم عدم السمع، لأن السمع السليم لا يحجبه إلا النوم... و هذه

---

[28] سورة الكهف، الآية رقم 99.

[29] القزويني: الإيضاح، تحقيق وتعليق غريد الشيخ محمد، إيمان الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2004، ص 208/207.

[30] محمد الجرجاني: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، علق عليه ووضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002، ص 174.

[31] الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، حققه وخرج أحاديثه محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ج18، ص259.

[32] السكاكي: المفتاح، ص 402.

[33] سورة الكهف، الآية رقم 11.

الكناية من خصائص القرآن"[34]؛ و يفسّر ابن كثير " فضربنا" فيقول: " ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة"[35].

نستنتج أن النص القرآني لا يقصد من الفعل " فضربنا" نسقه المعجمي مع إمكانية وروده، وإن كان ذلك مستبعد، لأن السياق العام الذي ورد فيه الفعل يفرض على المتلقي كفاءة ذهنية استدلالية تؤهله إلى الربط بين لفظ الخطاب وقصد الله تعالى الذي استلزم ترجيح فعل غير مباشر وهو إلقاء أو وضع على آذانهم حجابا. و يشير ابن عاشور إلى كناية أخرى حين قدم إلى تفسير قوله تعالى : فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا "[36]؛ يقول : " تقليب الكفين حركة يفعلها المتحسر، و ذلك أن يقلبهما إلى أعلى ثم إلى قبالته تحسرا على ما صرفه من مال في إحداث تلك الجنة وهو كناية عن التحسر"[37]، و يقول الرازي في نفس السياق: " فأصبح يَقلّب كفيه و هو كناية عن الندم و الحسرة، فإنّ من عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى، و إنما يفعل هذا ندامة على ما أنفق في الجنة التي وعظه أخوه فيها" [38].

إذا حاولنا تتبع خطوات الاستدلال اللازمة للربط بين الفعل الكلامي" يقلّب" و بين قصده تعالى يستلزم منا هذا الإجراء عددا من العمليات الذهنية التي تؤدي بنا إلى استنتاج ما يلي: إن النص القرآني تلفظ بالقول الكنائي " يقلّب كفّيه" يريد وصف مشهد الحسرة و الضياع من خلال الإحالة على ملزوم تقليب الكفين، و هذا لا يستلزم تغييرا في النسق الداخلي للألفاظ ، أي بتغيير خارجي هو تغيير إحالي للصفات في الواقع مع إمكانية تحقق هذه الإحالة ؛ لأن تقليب اليدين قد يتحقق بحكم أن الإنسان قد يتلقى نبأ مفرحا؛ و لكن إذا حصرنا معنى "تقليب الكفّين" في معنى الحسرة و الأسف لا يكون المخاطب قد أنجز فقط الفعل الإنجازي بصورة غير مباشرة ألا و هو الحسرة و الندم، بل يكون المتلقي قد أدرك هذا المعنى و اقتنع به تبعا

[34] تفسير التحرير والتنوير، ج15، ص 268.

[35] ابن كثير: تفسير القرآن الكريم: تحقيق ساسي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، مج5، ج5، ط2، 1999، ص 139.

[36] سورة الكهف، الآية رقم، 42.

[37] تفسير التحرير والتنوير، ج15، ص 327.

[38] -الرازي، التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج12 ص 129.

لذلك بالفعل الإنجازي غير المباشر. إذن هذه هي طبيعة النص القرآني كما اتضح لنا ذلك من خلال نصوصه، فهو يرتكز أساسا على اختياراته اللغوية وطريقة توزيعها لتصريف المعاني والدلالات، فهو حدث لغوي هدفه تحقيق الانسجام والتماسك بين أجزاء وحداته من خلال توظيف مثل هذه الاستراتيجيات المباشرة وغير المباشرة؛ وإن كانت ظواهره الأسلوبية معجزة في إبداعها، فلعل ذلك راجع إلى ما ينماز به من مواصفات تركيبية ودلالية ومن طاقات تداولية وتأويلية تفضي به إلى تجاوز البعد الأحادي المقنن ليمتد إلى الخطاب برمته.

References

[1] Ibn Qutaybah, ‘Abd Allāh ibn Muslim, Ta’wīl mushkil al-Qur’ān, taḥqīq Aḥmad Ṣaqr, Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, Bayrūt, ṭ3, 1981.

[2] Ibn Kathīr, Abū al-Fidā’ al-Ḥāfiẓ, tafsīr al-Qur’ān al-Karīm, taḥqīq Sāmī Muḥammad al-Salāmah, Dār Ṭaybah, al-Riyāḍ, ṭ2, 1999.

[3] Ibn ‘Āshūr al-Ṭāhir, tafsīr al-Taḥrīr wa-al-tanwīr, Dār al-Tūnisīyah, Tūnis, 1984.

[4] al-Jurjānī, ‘Abd al-Qāhir, Dalā’il al-i‘jāz, sharaḥahu wa-‘allaqa ‘alayhi wa-waḍa‘a fahārisahu Muḥammad al-Tūnjī, Dār al-Kitāb al-‘Arabī, Bayrūt, Ṭ1, 2005.

[5] al-Jurjānī, Rukn al-Dīn, al-Ishārāt wa-al-tanbīhāt, fī ‘ilm al-balāghah, ‘allaqa ‘alayhi wa-waḍa‘a hawāmishahu wa-fahārisahu Ibrāhīm Shams al-Dīn, Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, Bayrūt, Ṭ1, 2002.

[6] Al-Fakhr al-Rāzī, nihāyat al-Ījāz fī dirāsah al-i‘jāz, taḥqīq Bakrī Shaykh Amīn, Dār al-‘Ilm lil-Mu‘allimīn, Bayrūt, Ṭ1, 1985.

[7] Al-Tafsīr al-kabīr, Mafātīḥ al-ghayb, Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, Bayrūt, Ṭ1, D, t.

[8] Al-Maḥṣūl fī ‘ilm al-uṣūl, taḥqīq Muḥammad ‘Abd al-Qādir ‘Aṭā, Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, Bayrūt, Ṭ1, 1999.

[9] Al-Zarkashī, Badr al-Dīn, al-burhān fī ‘ulūm al-Qur’ān, kharraja ḥadīthahu wa-qaddama la-hu wa-‘allaqa ‘alayhi Muṣṭafá ‘Abd al-Qādir ‘Aṭā, Dār al-Fikr, Bayrūt, 2005.

[10] Al-Zamakhsharī, Abū al-Qāsim, al-Mufaṣṣal fī ‘ilm al-lughah al-‘Arabīyah, Dār al-Jīl, Bayrūt, ṭ2, D, t.

[11] Al-Sakkākī, Abū Ya‘qūb, Miftāḥ al-‘Ulūm, ḍabaṭahu wa-kataba hawāmishahu wa-‘allaqa ‘alayhi Na‘īm Zarzūr, Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, Bayrūt, ṭ2, 1987.

[12] Al-Suyūṭī, Jalāl al-Dīn, al-Itqān fī ‘ulūm al-Qur’ān, ḥaqqaqahu wa-‘allaqa ‘alayhi wa-kharraja aḥādīthahu Fawwāz Aḥmad Zamarlī, Dār al-Kitāb al-‘Arabī, Bayrūt, 2004.

[13] Al-Shīrāzī, Abū Isḥāq Ibrāhīm, al-Tabṣirah fī uṣūl al-fiqh, taḥqīq Muḥammad Ḥasan Ismā‘īl, Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, Bayrūt, Ṭ1, 2003.

[14] Al-Qazwīnī, Jalāl al-Dīn, al-Īḍāḥ fī ‘ulūm al-balāghah, taḥqīq wa-ta‘līq wa-fahrasat Gharīd al-Shaykh Muḥammad w’ymān al-Shaykh Muḥammad, Dār al-Kitāb al-‘Arabī, Bayrūt, Ṭ1, 2004.

[15] Al-Ṭabarī, Abū Ja‘far, Jāmi‘ al-Bayān fī Ta’wīl al-Qur’ān, ḥaqqaqahu wa-kharraja aḥādīthahu Maḥmūd Muḥammad Shākir, Dār al-Ma‘ārif, D, t.

[16] Shāhīn al-Ḥasan, ‘ilm al-dalālah alsymntykyh, Dār al-Fikr, al-Urdun, Ṭ1, 2001.

[17] Muḥammad al-Hādī al-Ṭarābulusī, Khaṣā’iṣ al-uslūb fī al-Shawqīyāt, al-Majlis al-A‘lá lil-Thaqāfah, Miṣr, Ṭ1, 1996.

[18] Searle, S. (1982). Sens et Expression, étude de théorie des actes de langage, traduction et préface par Joëlle Proust, les éditions de Minuit.